

فاس في ذاكرة الأندلس

سعيدة العلمي

كلية الآداب - ظهر المهرارز

إن هذا العنوان عملتان ذات وجه واحد، إذ بالإمكان القول: الأندلس في ذاكرة فاس أيضا، وقبل الشروع في مناقشة هذا الموضوع وعرض أفكاره لابد من الإشارة إلى اتساع وشساعة موضوع هذه الندوة: لأن تاريخ هذه المدينة أكثر من أن تستوعبه ندوة أو محاضرة سواء للعناصر الأصلية المكونة لها أو لأحوالها وعاداتها وأحداثها السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها... إذ لعبت فاس دورا مهما كمركز استراتيجي عبر الحقب والعصور لذا ومنذ البداية أقترح :

1 - إيجاد ببليوغرافية عامة عن فاس ومصادر دراستها.

2 - تصنيف هذه المصادر حسب نوعيتها... وحسب العصور قديمها وحديثها، شرقيها وغربيها.

3 - رصد مراكزها العلمية والاجتماعية والعمرانية والاقتصادية.

لذا فإننا في هذا العرض لن نستعرض هذا التاريخ المديد ولكن سنشير فقط إلى بعض المحطات التي لها علاقة بالعلم والعلماء، وفي فترة زمنية معينة.

وفي البدء لا أخفيكم مدى ارتباطي بهذه المدينة فقد انتابتي خواطر شتى عند محاولتي ترتيب عناصر هذا الموضوع ووجدتني أسائل نفسي هل أتحدث عن فاس بصفتها مسقط الرأس، ومرتع الصبا؟ أو أتحدث عنها كمدينة عاصمة حملت عبء التاريخ والحضارة المغربية الأندلسية؟

إذ ذاكرة الأندلس من خلال مصادرها العديدة لم تخل من ذكر لهذه المدينة ووصف كل ما يتعلق بها من أحوال. كما كانت الأندلس حاضرة في ذاكرة فاس في كل زمان ومكان بل إن المصادر قديمها وحديثها شرقا وغربا اهتمت بهذه المدينة مما يؤلف مكتبة عامرة في تاريخ فاس، تجعل الباحث يتبّه في الجمع والعد، لأن الأخبار منقولة، والأسانيد موصولة، والأصول محررة،

والتواريخ مقررة، والمآثر ناطقة شاهدة. كان النهار القرطاس والليل المداد ينافسان الليل والنهار في عالم الكون والفساد، فمهما طويا شيئا ولعا هما بنثره أو دفنا ذكرنا دعوا إلى نشره".¹

لذا فالجنوح إلى التخصيص أولوية الأولويات برعاية ما يخص الزمان والمكان الذي هو من حقوق السكان، ومن حسن العهد رعاية عهود الوطن بكتابة تاريخه، وما يخلد أمجاده.

وانطلاقا مما سبق ذكره سيكون الاعتناء ببعض مظاهر التواصل بين العدوتين، وفي هذا الصدد أشار بعض الباحثين إلى قضية أساسية تكمن في الأصول المكونة لمدينة فاس حيث يقول:

"ويبدو أن سكان المدينة الأوائل كانوا مكونين من ثلاثة عناصر:

— عرب جذبتهم مكانة الأسرة الإدريسية.

— وبربر من أهل المنطقة.

— وفئة من غير المسلمين: من اليهود ولعله كان بينهم بعض من المسيحيين، وقد انضم إليهم بعد فترة وجيزة فئتان أخريان:

— فئة جاءت من قرطبة سنة 203هـ / 818م والثانية من القيروان سنة 310هـ / 825م.

وقد أخرجت كل من بلدها عقب ثورة فاشلة أسهمت فيها.... وكان هؤلاء القادمون ممن ألف المدينة الإسلامية وقد كان بعضهم ممن له مشاركة بشؤون الفكر، أو ممن له حذق بأمور الصناعة وفنونها.

ولعل اتخاذ فاس خصائص المدينة الإسلامية بسرعة فائقة يرجع إلى هؤلاء القوم.

وقد استقر الأندلسيون في العدو اليمنى فسميت بهم، وأقام أهل القيروان في العدو اليسرى فعرفت بهم...².

والمستفاد من النص، والمهم فيه وجود العنصر الأندلسي في فاس قبل القيرواني بمدة تتجاوز قرنا من الزمان، هذا من جهة ومن أخرى مشاركة هؤلاء في الحياة العامة بهذه المدينة إما:

1) بشؤون الفكر أو 2) بأمور الصناعة وفنونها، ويعزز هذا ما جاء في "النفح"³: من إشارة واضحة إلى الواقعة الشهيرة "لأهل الربض من قرطبة مع الحكم بن هشام الذي قاتلهم فغلبهم... وهدم دورهم ومساجدهم، ولحقوا بفاس من أرض العدو".

¹ - انظر كتاب الإحاطة لابن الخطيب: 80/1.

² - انظر كتاب: "فاس في عصر بني مرين" لمؤلفه روجيه لوتورنو، ص 20-21، ويؤكد لوتورنو في ص 49 من هذا الكتاب أن اللغة العربية كانت اللغة الوحيدة المحكية في فاس في القرن الثامن الهجري.

ولعل حبهم لفاس راجع لتشابه بين مدنهم وفاس، قال ابن سعيد: "وأنا أقول كلاما فيه كفاية: "منذ خرجت من جزيرة الأندلس، وطفئت في بر العدو، ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس، لم أر ما يشبه رونق الأندلس في مياها وأشجارها إلا مدينة فاس بالمغرب الأقصى".⁴ وقال ابن الخطيب في وصف فاس: "نعم العرين لأسود بني مرين ذات المشاهد التي منها مطرح الجنة ومسجد الصابرين.

بلد أعارته الحمامة طوقها وكسا ريش جناحه الطاووس
فكأنما النهار فيه مدامة وكأن ساحات الديار كؤوس

إن هذه الهجرة لم تقف في زمن معين، ولم تحدد بفترة دون أخرى بل ظلت مستمرة منذ الفتح إلى ما بعد سقوط غرناطة. وكان من نتائجها ذلك الامتزاج الحضاري بين فاس وغيرها من النازحين من مدن أندلسية مختلفة، وخاصة بعد سقوط مدنها تباعا في يد النصارى.

ولعل وجود مؤسستين مهمتين في تاريخ فاس ضاربتين في أعماق التاريخ ما يشهد لذلك: فجامع الأندلس وجامع القرويين سبقتهما ما اصطلاح عليه في كتب التاريخ منذ العهد الإدريسي: بعدوة الأندلس، وعدوة القرويين، ويعد توحيد العدوتين — بتهديم الأسوار الفاصلة بينهما وإحاطتهما بتحصينات دارت بهما — عملا ذا أهمية من طرف المرابطين الذين اتخذوها قاعدة حربية للحملات التي شنوها على المغرب الأوسط وعلى الأندلس حيث صارت الأندلس ولاية من ولايات أمبراطوريتهم الواسعة.

ويعد "يوسف بن تاشفين" مؤسسها الثاني إذ أنه وحدها ومنحها حافزا اقتصاديا ودينيا كبيرا".⁵

كما اتخذها الموحدون أيضا قاعدة لأعمالهم الحربية ومركزا عسكريا وتجاريا، ومرت بفترة ازدهار على ما يشهد به الجغرافي: الإدريسي.

وتؤكد المصادر على وفود عدد كبير من الأندلسيين أيام المرابطين والموحدين من أصحاب الوظائف وأهل الخبرة للتسيير الإداري للدولتين، كما كان لعلمائها فضل كبير في الازدهار الثقافي...

³ - انظر نفح الطيب للمقري: 338/1-339 ذلك "أن الحكم في صدر ولايته انهمك في ملذاته، فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيى الليثي وطالوت الفقيه فثاروا به وخلعوه وبايعوا بعض قرابته فقاتلهم...، انظر أيضا مقدمة ابن خلدون: 126/4 والحلة السيرة: 44/1.

⁴ - انظر مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب: ص 31، ونفح الطيب: 445/6.

⁵ - انظر كتاب فاس في عصر بني مرين، ص: 22-23.

وباختصار فقد هيات الدولتان مدينة فاس لأن تتبوا مركزها كعاصمة من جديد لما دعاها الداعي لذلك أيام بني مرين، وفي الضفة الأخرى أيام مملكة غرناطة وبني نصر في الأندلس بعد سقوط معظم المدن الأندلسية في يد النصارى.

لقد دافعت "فاس" في شخص حكام بني مرين عن الأندلس وقامت بحملات ناجحة في سبيل ذلك.

نعمت فاس بالاستقرار عهد بني مرين خاصة أيام أبي الحسن المريني (732هـ-752هـ) وأبي عنان (752-760هـ). ففتنوا في بناء المدارس⁶ بصفة خاصة وبفن العمارة بصفة عامة، فكانوا يستوردون الرخام من الأندلس وإيطاليا⁷، وكانت تنعت مدرسة مصباح "باسم المدرسة الرخامية" بسبب نافورة رخامية تقوم فيها، جاء بها أبو الحسن من "الميرة" في الأندلس، وقد حملت إلى فاس في نهر سبو — وهي مناسبة من المناسبات النادرة التي استخدم فيها هذا النهر للملاحة⁸.

كما أن "وصفات الطعام" اليومية في فاس "تعود إلى تقليد قديم جاء أصلاً من الأندلس"⁹. وتحتضن المصادر العديد من المواقف التي تؤكد الصلة بين البلاطين أو العدوتين تظهر في مجالات عدة نذكر منها:

1 — هجرة العديد من علماء الأندلس إلى مدينة فاس عبر الحقب والأزمان التي مرت بها، ومدافنهم بها خير شاهد لذلك، وهذه الرحلات في غالبيتها كانت إما للدراسة أو التدريس، أو هروباً من قهر الحكام أو النصارى، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر — لأن الغرض تجسيد سبل التواصل بين العدوتين — الفقيه:

— أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي المعافري الإشبيلي المتوفى سنة 543هـ دفن في مدينة فاس خارج باب القصبية بترية القائد مظفر له تأليف عدة منها: عارضة الأحوذى¹⁰.

⁶ — من مثل مدرسة النحاسين قرب جامع القرويين (656هـ-685هـ) (بناها أبو يوسف المريني) وقد بنى أبو سعيد وابنه أبو الحسن المريني ثلاث مدارس أخرى: الواحدة في فاس الجديد قرب جامعها الكبير... والثانية على مقربة من جامع الأندلسيين وقد كانت هذه في الواقع مدرستين إحداهما مدرسة الصهريج وهي فسيحة الرقعة... والثانية كانت أصغر حجماً دعيت مدرسة القراءات السبع. انظر م. س، ص 29.

⁷ — فاس في عصر بني مرين، لوتورنو، ص 132.

⁸ — م. س، ص 43-44.

⁹ — م. س. ص 98.

¹⁰ — انظر جدوة الاقتباس 260/1-262، وفي النفح: 22/2-30 أنه دفن خارج باب الجيسة كما جاء في صلة ابن الزبير، والصواب خارج باب المحروق.

— محمد ابن الصفار القرطبي أبو عبد الله ت 639هـ من بيت علم شهير بقرطبة، كان إماما في علم الحساب، كان يقرئ الآداب بمراكش وفاس، وتونس وغيرها.¹¹

— عباد بن سرحان ابن سيد الناس المعافري الشاطبي أبو الحسن من شاطبة سكن مدينة فاس، ورحل إلى المشرق وحج ت: 543هـ بالعدوة، دخل مدينة فاس ولقبه بها جماعة منها، ذكر دخوله ابن الآبار.¹²

— مالك ابن المرحل المصمودي السبتي الدار المالقي المولد أبو الحكم سكن سبتة طويلا ثم مدينة فاس ثم عاد إلى سبتة ثم رجع إلى مدينة فاس، وبها توفي 699هـ، تحرف بصناعة التوثيق بببلده وولي القضاء مرات بجهات غرناطة وغيرها. له أشعار وأرجوزة وتآليف. دفن خارج باب الجيسة عن يمين الخارج من المدينة في الروضة الثانية المركنة.¹³

وقد تكاثرت موجبات الهجرة الداخلية في أواخر الحكم الإسلامي بالأندلس على عهد مملكة غرناطة حيث كثرت الفتن الداخلية، والتيارات الحربية من الخارج. وفي هذا الجو المفعم بالاضطراب نجد أعلاما من أكابر المفكرين والأدباء الذين زحرت بهم دولة بني الأحمر من مثل: الوزير ابن الخطيب¹⁴، وأبي الوليد ابن الأحمر¹⁵ الأمير وكانا ممن قصدوا فاس وبرعوا في رسم ذلك التواصل بين فاس وغرناطة — وأبي الحسن علي بن قاسم التجيبي الزقاق¹⁶ الذي تولى خطابة جامع الأندلس بفاس ت: 912هـ.

وأحمد بن محمد الدقون¹⁷ الذي تولى خطابة جامع القرويين بفاس ت: 921هـ.

والوزير الكاتب أبي عبد الله محمد بن الفقيه الصالح أبي محمد عبد الله العقيلي المعروف بالعربي¹⁸ خاتمة أدباء الأندلس، عبر البحر مع أبي عبد الله ابن الأحمر المخلوع آخر ملوك الأندلس¹⁹، الذي رحل معه أولاده ووالدته وأخته وحاشيته²⁰ متوجها إلى مدينة فاس حيث

¹¹ - انظر النفع: 119/2.

¹² - انظر الصلة لابن بشكوال: 452/2 ع 972، وجنوة الاقتباس: 386/2.

¹³ - انظر جنوة الاقتباس: 333-327/1.

¹⁴ - انظر الإحاطة: 438/4-640 والدرر الكامنة: 469/3-474. توفي ابن الخطيب عام 776 هـ.

¹⁵ - انظر: أبو الوليد ابن الأحمر: (حياته وآثاره) عبد القادر زمامة. توفي ابن الأحمر عام 807 هـ.

¹⁶ - انظر مقدمة روضة الإعلام لابن الأزرق 21-19/1.

¹⁷ - انظر م.س. 21-19/1.

¹⁸ - انظر م.س. 21-19/1.

¹⁹ - انظر م.س. 21-19/1.

²⁰ - ذكر المستشرق الإسباني لافونني ألكنترا في كتاب: Historia de Granada / Vol : III, p. 18/1904. إن مجموع الذي عبروا إلى المغرب مع الملك المخلوع كانوا ألفا ومائة و30 شخصا وفي كتاب نبذة العصر: 43 أنه اجتمع مع الأمير خلق كثير من الناس نحو 700 رحيل، انظر محنة مسلمي الأندلس لمحمد عبده ختامه، ص 66.

استقبلهم السلطان أبو عبد الله محمد الشيخ بن أبي زكريا يحيى الوطاسي (886هـ - 910هـ) وعهد إليهم بمناصب إدارية وحربية ذات أهمية كبيرة.²¹

استقر أبو عبد الله الصغير بفاس نهائياً، وابتنى بها بعض القصور على الطراز الأندلسي الغرناطي، رآها وتجول في أرجائها أحمد بن محمد المقرئ صاحب نفع الطيب²². توفي أبو عبد الله بفاس، واختلف في سنة وفاته ما بين (934-940هـ) ودفن بإزاء المصلى خارج باب الشريعة²³ خلافاً لما يراه بعض مؤرخي الإسبان أنه قتل في معركة ابن عقبة بوادي العبيد... والهدف واضح؟!²⁴.

إن هذا التواصل بين العدوتين جعل فاس في ذاكرة الأندلس وزخرت كثير من المظان بهذا الاهتمام المتميز والمتبادل بين فاس وغرناطة، فألف إسماعيل بن يوسف ابن السلطان القائم بإذن الله أبو عبد الله محمد الأمير أبو سعيد فرج ابن الأحمر الخزرجي الذي كان يسكن مدينة فاس بعقبة المكودي بقرب الرصيف²⁵ كتاب: "بيوتات فاس الكبرى"²⁶ وهو تأليف في أعيان فاس وأهلها بل سجل خاص بكل مظاهر الحياة الفاسية، كما ألف في تاريخها العام أو تاريخها الدبلوماسي كتاب: "روضة النسرين في تاريخ بني مرين". "والنفحة النسرينية في تاريخ الدولة المرينية" شرح به أرجوزة له في تاريخ بني مرين²⁷.

وتعلق بأدباء العدوتين فألف "نثير الجمال في شعر من نظمني وإياه الزمان" و"نثير فرائد الجمال..."

— وله شرح على البردة، وهو أول شرح أندلسي على بردة البوصيري.

بالإضافة إلى كل هذا كانت حلقة أبي الوليد إسماعيل بن الأحمر مشهودة بفاس لما عرف عنه من تحصيل للعلوم والمعارف.

²¹— وقد دافع بعض هؤلاء بشجاعة وكفاءة عن الشواطئ المغربية التي كان البحارة الإسبان يغيرون عليها في عهد الملكة: ضونيا خوانا، وعهد ابنها ملك إسبانيا الأول وإمبراطور ألمانيا الخامس كارلوس الأول.

²²— انظر النفح: 281/6 ت محمد محيي الدين ط القاهرة 1949.

²³— انظر: م.س. ص 281/6 والاستقصا: 135/4.

²⁴— هذه المعركة كانت بين السلطان الوطاسي وأحد الخارجيين عنه: أبي العباس أحمد السعدي. وكان الإسبان يهدفون من وراء ذلك إلى القول: بأنه لم يجرؤ أن يموت دفاعاً عن مملكته بينما مات موت الأبطال دفاعاً عن مملكة غيره. انظر محنة مسلمي الأندلس: د. محمد عبده حتملة: ص 74.

²⁵— انظر جذوة الاقتباس: 166/1-167، يقول عن عقبة المكودي: وهي التي تسمى اليوم بالمدارج الواقعة بين الرصيف ورحبة الزبيب وهدمت الدور التي كانت بها على عهد السلطان مولاي سليمان العلوي وبني مكانها مسجد الرصيف.

²⁶— إذا صحت نسبة الكتاب إليه.

²⁷— توجد نسخة منها بخزانة الأسكوريال / مدريد، ولها مصور محفوظ بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

وشرحه الأخير كان مهدي إلى الوزير: أبي يحيى بن مجاهد غازي بن الكاسر الورتاجني الذي شمش في الوزارة آنفا... مادحا إياه بالجدود وداعيا له، ولعل أبا الوليد²⁸ كان يريد بذلك عطاء لقلّة ذات اليد "قرب أمير استجدي".

ويذكر أبو الوليد في سنده لرواية هذه القصيدة: "أنه قرأها على أبي القاسم عبد الرحمن السجلماسي الشهير بابن الحفيد بالمسجد الشهير" مسجد زنقة حجامة بفاس بتاريخ أواخر ذي الحجة من عام: سبعة وستين وسبعمئة، وحصل على الإجازة فيها²⁹ والشرح يغلب عليه الجانب التاريخي لكثرة ما أورد من أحداث وقصص وأخبار مستطردا متقصيا.³⁰

إن احتفاءه بهذه القصيدة وبشرحها يعود إلى ما كان عليه عصر بني مرين من اهتمام بالقصائد المولدية عامة وبالبردة خاصة إذ كانت تنشّد في المحافل والمواسم وتعدّد الحلقات لتدريسها³¹ وكان أبو الوليد خير شاهد على ذلك.

وإذا كان أبو الوليد من الغرباء القادمين على فاس، فإن ما خلفه من إنتاج أدبي وتاريخي ليعكس ذلك التواصل الحضاري بين فاس والأندلس في أجلي مظاهره الثقافية والفكرية، وقد سبقه إلى ذلك وزير غرناطة لسان الدين ابن الخطيب، وسفيرها إلى "السلطان أبي عنان المريني" ليستمد منه العون على عدوه فلما قدم عليه مدحه بأبيات مؤثرة جاء فيها:

خليفة الله ساعد القدر علاك ما لاح في الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته ما ليس يستطيع دفعه البشر
والناس طرا بأرض أندلس لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
وجملة الأمر أنه وطن في غير عليك ماله وطـر³²

ولا أريد الخوض في سرد تفاصيل حياته لكن الوقوف في بعض المحطات التي تبرز الصلات الوثيقة الجامعة بين فاس وغرناطة أيام الغني بالله والسلطان أبي سالم، ولد السلطان أبي

²⁸ — أنظر مخطوط شرح البردة (1 أ - 4 ب)

²⁹ — أنظر م.س. ص 51 - 4 ب

³⁰ — أنظر مقال: قراءة في مخطوط "استنزال الفرج بعد الشدة لأبي الوليد ابن الأحمر" دة سعيدة العلمي / مجلة كلية الدعوة الإسلامية: ع 15/1998، ص 537

³¹ — ورفات عن الحضارة المغربية، الأستاذ محمد المنوني، ص 276 - 278

³² — كان ابن الخطيب على رأس وقد من رجالات الأندلس طالبا المعونة على مقاومة ملك فشتالة، واستقبله أبو عنان بترحيب وحفاوة وذلك في 28 ذي القعدة 755هـ، وانشد ابن الخطيب هذه القصيدة الرائعة... التي كان لها عظيم الأثر، فكان الانصراف بأفضل مما عاد به سفير من واد أصيل وإمداد موهوب... وقد نجح السعي، وأثمر الجهد. انظر الإحاطة 23/1.

الحسن المريني وعلاق المودة الوثيقة بينهما هو أهم ما نتوخى من كل ذلك. "فالسلطان أبو سالم أيام محنته قد لجأ إلى الغني بالله حينما تغلب عليه أخوه السلطان "أبو عنان" ونفاه إلى الأندلس، فأكرم الغني بالله مثواه.

فلما وقع الانقلاب بالأندلس وفقد الغني بالله عرشه، ... منبوزا إلى "وادي آش" رعى له السلطان أبو سالم عهد الصداقة والوفاء وأرسل إلى غرناطة سفيراً يسعى لدى رجالها في إجازة السلطان المخلوع ووزيره المعتقل إلى المغرب، فاستجاب السلطان إسماعيل لرغبة سلطان المغرب، حفظاً لمودتهم، واستيفاء لنجدتهم التي أنقذت الأندلس من عدوان النصاري غير مرة، فأخرج عن ابن الخطيب ولحق سلطانه المخلوع في "وادي آش"، وعبر الغني بالله ووزيره ونفر كبير من آل البحر، فوصل الركب إلى فاس في 6 محرم 761هـ، فاحتفل بهم السلطان في يوم مشهود، وانشد ابن الخطيب قصيدة من أروع قصائده يدعو فيها لنصرة سلطانه، وهذا مطلعها:

سلا هل لديها من مخبرة ذكر وهل أعشب الوادي ونم فيه الزهر...³³

ولقد أبكى ابن الخطيب سامعيه تأثراً وأسى. كما هنا السلطان بفتح تلمسان.³⁴

وفي بلاط فاس كان ابن خلدون من شهود ذلك الحفل وكان كل واحد منهما يسمع عن صاحبه ويتوق إلى لقائه وكل منهما أستاذ عصره وقطره، جمعت بينهما في البداية أواصر الحب والصداقة وفرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس. ومع ذلك ترجم كل منهما للأخر، وتبادلا طائفة من الرسائل الشخصية والسياسية³⁵.

ولبت سلطان غرناطة "الغني بالله" في فاس يرقب الحوادث وينتظر من "pedro" الثاني (ملك قشتالة) المعاونة لاسترداد ملكه، وفي هذه الأثناء وقع انقلاب في فاس، فقد فيه السلطان "أبو سالم" عرشه ولقي مصرعه في ذي القعدة من عام 762هـ.

واستبد بالحكم صهره "عمر بن عبد الله" زوج أخته الذي ساعد الغني بالله على استعادة ملكه... وعندئذ جاز محمد³⁶ إلى رندة الأندلسية — وكانت يومئذ من أملاك بني مرين — ومنها غزا ثغر مالقة ثم تكاثر أصحابه فسار إلى غرناطة واستولى عليها وجلس على عرشه في جمادى

³³ الإحاطة: 26/1 - 29، ج 13/2.

³⁴ وقد تم فتح تلمسان في العام ذاته 761هـ، وهناك بقصيدة مطلعها:

أطاع لسانني في مديحك إحساني وقد لهجت نفسي بفتح تلمسان.

أوردها المقرئ في النفع 16/3-19 وتقع في نحو مائة وعشرين بيتاً.

³⁵ انظر التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ص 82-93 وص 103 - 128، ط لجنة التأليف والترجمة:

1951.

³⁶ - أي الغني بالله.

الآخرة سنة 763هـ. وما كاد يجلس على عرشه حتى أرسل كتابه إلى وزيره المنفي ابن الخطيب وحلاه بمقعد الوزارتين³⁷.

وفي ذلك الحين وفد صديق "ابن الخطيب" على الأندلس بعد فقدان حظوظه في بلاط فاس، وكان ابن خلدون قد أسدى للغني بالله أثناء إقامته بفاس كثيرا من الخدمات، فاستقبله استقبالا حافلا حين مقدمه (عام: 765هـ) إلى غرناطة، وناولوه من صلاته وجعله من خاصته وبعث به إلى إشبيلية، سفيرا إلى ملك قشتالة، فأدى ابن خلدون سفارته خير أداء³⁸. ثم فترت العلاقات بينهما و"لاحظ ابن خلدون" إعراض السلطان عنه وشعر بأثر ابن الخطيب في هذا التحول فغادر الأندلس وعاد إلى المغرب ليخوض غمار حوادثه... سنة 766هـ.

إن في كل ما قدمنا من نصوص وحوادث لشاهدة على ذلك التواصل بين العدوتين في حالتني: السلم والحرب، القوة والضعف، ولطالما كانت فاس موئل النازحين من أرض الأندلس، وقد شاعت الأقدار للوزير "ابن الخطيب" في نهاية المطاف أن يكون دفينها في "باب المحروق" مهزوما مخذولا بعد أن كان إلى وقت قريب مخدوما مطاعا مرهوب الجانب. وكان قدره أن يسجن بها في بلاط المرينيين، وأن يخنق ويقتل ويحرق بهذه المدينة التي كانت يوما كالأم الرؤوم كما سجن قبله "ابن ملك البرتغال لسنوات عديدة بانتظار تحريره ولم يتم ذلك فمات فيه"³⁹.

والذي يهمننا في شخصية "ابن الخطيب" ما خلفه من مؤلفات تاريخية عاشها مع الحدث وجمع فيها بين العدوتين من ذلك كتابه: "اللمحة البدرية في الدولة النصرية" ففيه إشارات عدة إلى سلاطين بني مرين.⁴⁰

"وكناسة الدكان بعد انتقال السكان" حول العلاقات السياسية بين مملكتي غرناطة والمغرب في القرن الثامن الهجري.⁴¹ وهو جملة مراسلات بين الحضرتين تبلغ خمسا وعشرين رسالة أنشأها ابن الخطيب، وهي في مجموعها تمثل العلاقات الدبلوماسية بين المملكتين. تبودلت خلالها الرسل والهدايا، وتدفقت معها على الأندلس المعونات الحربية المغربية جريا على سنة الأسلاف المرابطين والموحدين... بل وثائق هامة في أحداث المغرب والأندلس لما تكشف عنه من حقائق ذات أهمية بالغة.⁴²

³⁷- انظر الإحاطة: 29/1.

³⁸- انظر م.س. 30/1.

³⁹- انظر فاس في عصر بني مرين لوتورنو: 78 ويذكر أنه كان يقيم في أبراج باب السباع القوية على مقربة من قصر فاس الجديد.

⁴⁰- انظر اللمحة البدرية صفحات: 114-117-118-120 دار الآفاق الجديدة / بيروت ط 3 / 1980

⁴¹- ت: محمد كمال شبانة: ط 2003/مكتبة الثقافة الدينية. كتب كتابه هذا في مدينة سلا.

⁴²- انظر كناسة الدكان ص 9.

ومما جاء فيها: كتاب عن أبي الحجاج بن نصر إلى السلطان أبي عنان مراجعا عن هدية بين يدي حركته إلى تلمسان في شهر المحرم: 752هـ، تشتمل على خيل عتاق ومهندات، ومهاميز محكمة، كل ذلك من خالص الذهب وذهب عين".⁴³

ويكفي فاس فخرا أن ذاكرتها في المصنفات الأندلسية مازالت "خزانة القرويين" بها تحتضن العديد منها لابن الخطيب وغيره "كالبیان والتحصيل" لابن رشد، و"شذرات من مختصر كتاب الزبيدي" المسمى: "طبقات اللغويين والنحويين"، و"الخلاصة" للشاطبي.... إلى غير ذلك وهو كثير.

النتائج

إن هذا العرض — لا يمثل إلا النزر اليسير من ذاكرة الأندلس، وآمل بأن تعد ملتقيات أخرى حول هذه المدينة حتى توفيقها حقها من التوثيق، وتبين فضلها على الحضارة الإنسانية — اقتصرنا فيه على بعض الشؤون الفكرية والسياسية التي جادت بها الأندلس في مقابل الدعوة على الضفة الأخرى [ولم نرصد الهجرة المعاكسة التي نعاني منها اليوم....] ولم نتصرف في الميادين الفنية التي تشمل العمران والصناعات والأدب بنوعيه والموسيقى وباقي العلوم لأن هذا يتطلب ملتقيات عديدة تقوم على الإحصاء وقراءة الوثائق والمستندات قراءة واعية متفحصة. وشكرا.

والله الموفق

والسلام

⁴³ - انظر م. س. ص 69.

